مختصر
جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

اختصره وعلق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

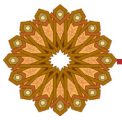

الحَدِيثُ الثَّلاثونَ

■ عن أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وحَرَّمَ أَشْيَاء فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ، غَيْرَ نِسْيَانٍ؛ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وغَيرُهُ.

الشَّرحُ

قالَ أبو بكرٍ ابنُ السَّمْعانيِّ: «هذَا الحديثُ أصلٌ كبيرٌ مِن أصولِ الدِّينِ»؛ قالَ: «فمَن عَمِلَ بهذَا الحديثِ؛ فقدْ حازَ الثَّوابَ، وأَمِنَ العِقَابَ؛ لأنَّ مَن أدَّى الفرائِضَ، واجتنبَ المحارِمَ، ووقفَ عِندِ الحُدُودِ، وتركَ البحثَ عمَّا غابَ عَنهُ؛ فقدِ استوفَى أقسامَ الفَضْلِ، وأوفَى حقوقَ الدِّينِ؛ لأنَّ الشَّرائِعَ لَا تخرجُ عَن هذِهِ الأنواعِ المذكورَةِ في هذَا الحديثِ». انتهَى.

فأمَّا الفرائِضُ: فمَا فرضَهُ اللهُ علَى عبادِهِ، وألزَمَهُم القيامِ بهِ؛ كالصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصِّيامِ، والحَجِّ.

وأمَّا المحارِمُ: فهِيَ الَّتِي حماهَا اللهُ تعالَى، ومنعَ مِن قُربانِها وارتكابِها وانتهاكِهَا.

وأمَّا حُدُودُ اللهِ الَّتِي نَهى عَن اعتدائِهَا؛ فالمرادُ بهَا جملةً: مَا أذنَ فِي فعلِهِ، سواءٌ كانَ علَى طريقِ الوجوبِ، أَو النَّدبِ، أو الإباحةِ.

واعتداؤُهَا: هُوَ تجاوُزُ ذلكَ إلَى ارتكابِ مَا نَهى عنهُ.

وقد تُطلَقُ (الحدودُ)، ويُرادُ بِهَا: نفسُ المحارِمِ؛ وحينَئذٍ؛ فيُقالُ: لَا تقرَبُوا حُدودَ اللهِ؛ كمَا قالَ تعالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقد تُسَمَّى العُقُوباتُ المُقدَّرَةُ، الرَّادِعَةُ عَن المحارِمِ المغلَّظَةِ (حُدُودًا)؛ كمَا يُقالُ: حدُّ الزِّنَا، وحدُّ السَّرِقَةِ،

وحدُّ شُرْبِ الخَمْرِ. وهذَا هُوَ المعروفُ من اسْمِ الحدودِ في اصْطِلَاحِ الفُقَهاءِ.

وأمَّا المسكوتُ عَنهُ: فهُوَ مَا لَم يُذكَرْ حُكْمُه بتحليلٍ، ولَا إيجابٍ، ولَا تحريمٍ؛ فيكونُ مَعفُوًّا عنهُ؛ لَا حرجَ علَى فاعِلِهِ.

* قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فلَا تبحثُوا عنهَا**»:

وممَّا يدخلُ في النَّهْيِ عَن البَحْثِ عَنهُ: أمورُ الغَيْبِ الخبريَّةُ؛ الَّتِي أُمِرَ بالإيمانِ بِها، ولَم يُبيَّن كيفيَّتُها؛ فالبحثُ عَن ذلكَ ممَّا يُنهَى عَنهُ، وقدْ يوجِبُ الحيرةَ والشَّكَّ، ويرْتَقِي إلَى التَّكذيبِ.

وفي «صَحيح مُسلِمٍ»، عَن أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**لَا يزالُ النَّاسُ يسألونَ؛ حتَّى يُقالَ: هذَا اللهُ خلقَ الخَلْقَ؛ فمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فمَن وَجَدَ مِن ذلكَ شَيئًا؛**

فلْيَقُلْ: آمنتُ باللهِ»[1].

قالَ إسحاقُ بنُ راهويه: «لَا يجوزُ التَّفكُّرُ في الخالِقِ، ويجوزُ للعبادِ أَن يتفكَّرُوا في المخلوقينَ بمَا سَمِعُوا فِيهِم، ولَا يزيدونَ علَى ذلكَ؛ لأَنَّهم إنْ فعلُوا تَاهُوا». قالَ: «وقدْ قالَ اللهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ فلَا يجوزُ أَن يُقالَ: كيفَ تُسبِّحُ القِصَاعُ والخبزُ والثِّيابُ؟ وكلُّ هذَا قدْ صَحَّ العِلْمُ فيهِ أَنَّهم يُسَبِّحونَ؛ فذلكَ إلَى اللهِ أَن

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٣٤). وهذِهِ إحْدَى الصِّيغُ الَّتِي ينبَغِي علَى المُسْلِمِ أَن يقولَها؛ متَى وجدَ شيئًا مِن الشَّيطانِ.
وأَنَا أُلخِّصُ بعضَ مَا ينبَغِي للمُسلِمِ أَن يقولَهُ ويفعلَهُ -كمَا جاءَ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ-؛ فمِن ذلك:
١. قول: (آمنتُ باللهِ) كما في رواية مُسْلم التي ذكرها المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
٢. قول: (آمنتُ باللهِ ورَسُولِهِ) كمَا في روايةٍ أُخرَى في صحيح مُسلِم.
٣. الاستعاذةُ باللهِ، ثمَّ الانتهاءُ عَن التَّمادِي في ذلكَ التَّفكير. كما عند البُخاري (٣٢٧٦) وكما في روايةٍ أُخرَى عِند مُسلِم.
٤. يقول: (اللهُ أحد، اللهُ الصَّمَد، لَم يَلِدْ ولَم يُولَدْ ولَم يكُن لَهُ كفوًا أحد)، ثَمَّ يتفُلُ عَن يسارِهِ -ثلاثًا-، ويستعيذُ مِن الشَّيطانِ. ورد ذلك في حديث أخرجَهُ أبو داودَ بسندٍ حَسَنٍ.

يجعلَ تسبيحَهُم كيفَ شاءَ، وكمَا يشاءُ، وليسَ للنَّاسِ أَن يخوضُوا في ذلكَ إلَّا بمَا عَلِمُوا، ولَا يتكلَّموا في هذَا وشِبْهِهَ إلَّا بمَا أخبرَ اللهُ، ولَا يزيدُوا علَى ذلكَ؛ فاتَّقُوا اللهَ، ولَا تخوضُوا في هذِهِ الأشياءِ المُتشابِهةِ؛ فإنَّه يُرْدِيكُم الخوضُ فيهِ عَن سَنَنِ الحَقِّ» نقلَ ذلكَ كلَّهُ: حَرْبٌ، عَن إسحاقَ -رَحِمَهُما اللهُ-[1].

(١) وللعَّلامةِ الشَّيخِ محمَّدِ بنِ صالح العثيمين فتوىً عظيمةُ النَّفعِ؛ لمَن وقعَ في قلبِه شيءٌ مِن الشُّكوكِ والوَساوِسِ.

* سُئِلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَن رَجُلٍ يوسوسُ لهُ الشَّيطانُ بوَساوسَ عظيمةٍ، فيمَا يتعلَّقُ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وهُوَ خائفٌ مِن ذلَك جدًّا.

* فأجابَ بقولِهِ: «مَا ذُكر مِن جهةِ مُشكلةِ السَّائِلِ الَّتِي يخافُ مِن نتائجِهَا؛ أقولُ لهُ: أبشرْ بأنَّه لَن يكونَ لَها نتائجُ إلَّا النَّتائج الطَّيِّبة؛ لأنَّ هذِهِ وَساوسُ يصولُ بِها الشَّيطانُ علَى المؤمنينَ؛ ليُزعزِعَ العقيدةَ السَّليمةَ في قلوبِهم، ويوقعَهم في القلقِ النَّفسيِّ والفكريِّ؛ ليكدِّرَ عليهِم صفوَ الإيمانِ. وليستْ حالهُ بأوَّلِ حالٍ تَعرِضُ لأهلِ الإيمانِ، ولَا هِيَ آخر حالٍ. ولقدْ كانَتْ هذِهِ الحالُ تعرضُ للصَّحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فعَن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: جاءَ أناسٌ مِن أصحابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فسألُوهُ: إنَّا نجدُ في أنفسِنَا مَا يتعاظمُ أحدُنا أَن يتكلَّمَ بِهِ! فقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَقد وجدتموهُ؟»؛ قالُوا: نَعَمْ؛ قالَ: «ذاكَ صريحُ الإيمانِ»! رَوَاهُ مُسلِمٌ. =

= وفي «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «يأتِي الشَّيطانُ أحدَكُم؛ فيقولُ: مَن خلقَ كذَا؟ من خلقَ كذَا؟ حتَّى يقولَ: مَن خلقَ رَبَّكَ؟ فإذَا بلغَهُ؛ فلْيستَعِذْ باللهِ، ولْينْتَهِ».

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَهُ رجلٌ فقالَ: إنِّي أحدِّثُ نَفْسِي بالشَّيءِ؛ لأن أكونَ حُمَمَةً أحبُّ إليَّ مِن أن أتكلَّمَ بهِ! فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحمدُ للهِ الَّذِي ردَّ أمرَهُ إلَى الوَسوسةِ». رَوَاهُ أبو داودَ.

فأقول لهذَا السَّائلِ: إذَا تبيَّنَ لكَ أنَّ هذِهِ الوَساوِسَ مِن الشَّيطانِ؛ فجَاهِدْهَا وكَابِدْهَا، واعْلَمْ أنَّها لَن تضرَّكَ أبدًا، معَ قيامِكَ بواجبِ المجاهدَةِ، والإعراضِ عَنهَا، والانتهاءِ عَن الانسيابِ وراءَها؛ كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ اللهَ تجاوَزَ عَن أُمَّتِي مَا وَسوسَتْ بِهِ صدورُها، مَا لَم تعمَلْ بِهِ، أَو تتكلَّمَ»، متَّفقٌ عليه. وأنتَ لَو قيلَ لكَ: هَلْ تعتقدُ مَا توسوسُ، وهَلْ تراهُ حقًّا؟ وهَلْ يمكنُ أَن تصفَ اللهَ -سُبحانَهُ- به؟ لقلتَ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦]! ولأنكرتَ ذلكَ بقلبِكَ ولسانِكَ، وكنتَ أبعدَ النَّاسِ عَنهُ.

إذَنْ؛ فهُوَ مجرَّدُ وَساوسَ وخطراتٍ تعرضُ لقلبِكَ مِن الشَّيطانِ؛ ليرديكَ، ويلبِسَ عليكَ دِينَك. ولذلكَ تجدُ الأشياءَ التَّافهةَ لَا يُلقِي الشَّيطانُ في قلبِكَ الشَّكَّ فِيهَا؛ فأنتَ تسمعُ -مَثَلًا- بوجودِ مُدنٍ كبيرةٍ مملوءةٍ بالسُّكانِ، ولَم يخطُر ببالِكَ الشَّكُّ في وُجُودِهَا؛ إذْ لَا غرضَ للشَّيطانِ في تشكيكِ الإنسانِ فيهَا. ولكنَّ الشَّيطانَ لهُ غرضٌ كبيرٌ في إفسادِ إيمانِ المؤمنِ؛ فهُوَ يَسعَى =

= ليُطفئَ نورَ العِلْمِ والهدايةِ في قلبِهِ، ويوقعهُ في ظُلمةِ الشَّكِّ والحيرَةِ، والنَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيَّن لنَا الدَّواءَ النَّاجعَ؛ وهُوَ قولُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فلْيَستَعِذْ باللهِ، ولينتَهِ»؛ فإذَا انتهَى الإنسانُ عَن ذلكَ، واستمرَّ في عبادةِ الله؛ طلبًا ورغبةً فيمَا عِندَ الله؛ زالَ ذلكَ عَنهُ بحولِ اللهِ.

فأَعْرِضْ عَنِ جميعِ التَّقديراتِ الَّتِي تَرِدُ علَى قلبِكَ، وهَا أنتَ تعبدُ اللهَ، وتدعوهُ، وتعظِّمُهُ، ولَو سَمِعْتَ أحدًا يصفُه بمَا تُوسوسُ بهِ؛ لقتلتَهُ إنْ أمكنكَ ذلك.

إذَنْ؛ فمَا تُوسوسُ بهِ ليسَ حقيقةً واقعةً؛ بلْ هُوَ خواطرُ ووَساوِسُ لَا أصلَ لَها.

ونَصيحَتِي تتلخَّصُ فيمَا يأتِي:

١. الاستعاذةُ باللهِ، والانتهاء بالكليَّةِ عَن هذِهِ التَّقديراتِ؛ كمَا أمرَ بذلكَ النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

٢. ذِكْرُ اللهِ تعالَى، وضبطُ النَّفسِ عَن الاستمرارِ في هذِهِ الوَساوسِ.

٣. الانهماكُ الجِدِّيُّ في العبادةِ والعملِ؛ امتثالًا لأمرِ اللهِ، وابتغاءً لمرضاتِهِ؛ فمتى التفتَّ إلَى العبادةِ التفاتًا كليًّا بجِدٍّ؛ نسيتَ الاشتغالَ بهذِهِ الوَساوسَ إن شاءَ اللهُ.

٤. كثرةُ اللُّجوءِ إلَى اللهِ، والدُّعاءِ بمعافاتِكِ مِن هذَا الأمرِ.

وأسألُ اللهَ لكَ العافيةَ، والسَّلامةَ مِن كلِّ سُوءٍ ومَكروهٍ».

انتهَى كلامُهُ رَحِمَهُٱللَّهُ مِن «مجموع الفتاوى» جمع الشَّيخ فَهد السُّليمان (١/ ٥٧).